المهزومون يتكلّمون!

الدكتور شاكر مصطفى

تسأل «جيل الهزيمة» كيف الخروج منها؟ نحن جيل الهزيمة. لنعترف أولا بهذا الواقع. صحيح أننا فتحنا الاعين على الدنيا ومن ورائنا صراخ ميسلون وبلفور وثورة الخطابي والمختار والأطرش وهزات سعد زغلول، وركضنا الشوارع بالسروال القصير وفي آذاننا ثورات ١٩٣٦ وهزيم الحرب الثانية، وكانت رؤى الاستقلال والوحدة والحرية عرائش الجن في أحلامنا والبساط المدود حتى «سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى...» صحيح كل هذا، ولكنا كنا نبني الغد بأدوات القرن الماضي وبعقلية القرن الماضي ذات البعدين. وكان العصر يتراكب ويتعقد بأدوات أخرى وعقليات ذات ألف بعد. الجيل كله سقط في هذا المنعطف الخطر، منعطف التلاقي غير المتكافىء بين تيارع العصر، وتعقده المفترس، وتجبّر قواه العلمية والتقنية والامبريالية وبين جماهير شعبية كانت بناها في مرحلة انتقال شامل وطلائع هشة التجربة، والثقافة عجزت عن أن تحمل المصباح أو تضرب للوعي الشعبي الجذور أو تحدد معالم الطريق!

ليس هذا بجلد مازوخيّ للذات. ليس اعتذاراً ولكنه اعتراف. إقرار بواقع فاجع هو أننا كنا، كطلائع، أحد أسباب الكارثة. وأقول كارثة لأن ما نحن فيه اليوم ليس هزيمة فقط ولكنه يدخل في باب الكوارث الكبرى التي تضع في الميزان المعادلة الشكسبيرية القديمة: أن نكون أو لا نكون!

أول هزائمنا أننا ارتضينا، في اللهفة العمياء لحرق المراحل، أن نسلم مصائرنا «للجزمات» العسكرية التي تركت ثكناتها للرياح ونزلت قصور الحكم تعلّم الناس حتى التخطيط والوطنية والسياسة والعلم أيضا!

ثاني الهزائم أننا ارتضينا طائعين أن تتسلم الأنظمة والحكومات النضال بدل الشعوب. أن تحل أجهزة الحكم وجيوشها «الجرارة» محل التحرك الجماهيري الواسع.

ثالث الهزائم أننا ظللنا نؤمن — وإن لم نعلن — بأسطورة المستبد العادل. بالفرد وقدرته على التغيير، بالانقلاب من أعلى. فجاء المستبدّ ولم يأت العادل، وجاء الفرد فكانت عبقريته الكبرى تغيير معالم الوجوه. وكان الانقلاب من أعلى ولكن ليتداوله الانقلابيون عقيداً عن لواء ثم مقدماً عن عقيد ثم ملازماً عن مقدم... وكانت نتيجة كل ذلك أن من كان بيده القرار لم يكن بصاحب رأي ومن كان صاحب رأي لم يكن بيده القرار.

رابع الهزائم... خامس الهزائم... السادسة... السابعة! أستطيع أنا وتستطيع أنت أن تمضي في التعداد إن شئت، وأن تقدم هذه وتؤخر تلك، وأن تجعل هذه سبباً وتلك نتيجة، وأن تحلل وتقوّم وتتّهم. ولكن ثمة حقيقة واحدة تبقى ساطعة في النهاية لا اختلاف عليها هي أننا في زمن الظهر المكسور!

في زمن تستطيع فيه الآلة العسكرية الصهيونية أن تعربد ما شاءت على الارض العربية، وأن تذبح حتى الأطفال، وتلقي عشرات ألوف الاطنان من القنابل على المدن ثلاثة أشهر بساعاتها ولياليها وذلها الطويل فلا يتحرك نظام واحد من الأنظمة العربية الاثنين والعشرين بهزة نخوة (بارك الله الأمم المتحدة!!) ولا يستطيع عربي واحد من المئة والستين مليون عربي أن ينزل الى الشارع ويصرخ! أن يبصق كل ما في صدره من عواصف وجنون!

وما أتحدث حين أتحدث عن الهزائم أمام الصهيونية. نحن لم نهزم مرة واحدة أمام اسرائيل. أقولها بكل تحدٍّ وثقة. لم نهزم مرة واحدة. إنما هزمت النظم. هزمت القيادات العمياء. هزمت الأبنية الفاسدة التي يبنون في القوة العسكرية والفكر التافه، والتنظيم الكرتوني الكسيح! أبداً لم يسمح للجماهير العربية بالحرب

(استعداداً وممارسة ووعي مصير)، أبداً لم توحَّد قوى العرب (روحاً ومادة) في وجه العدوان. أبداً لم تقف حتى ولا عشر معشار القوى العربية الحقيقية في جبهة المواجهة. كانت حروبنا دوماً بالنيابة. أو كانت بالتوكل، أو للدعاية ودعم الجبهة الداخلية. أو كنا نحارب بالخطب أو نحارب ونحن نضمر عدم الحرب. أبداً ما كان العدو من همّ النظم ، ولكن قوى الشعب هي الهمّ. ولقد كبلوها بعبقرية غريبة. النظم ما أخذت من تقنية الغرب ووسائله المتقدمة في التخطيط والعمل الا العملية الارهابية. أتقنتها حتى الكمال تجسساً وإخبارات ومخابرات وسجوناً سوداء وتعذيباً مدهش الفنون واغتيالات هي القمة في تمام التخطيط والتنفيذ. أما البناء الاقتصادي والتكوين الثقافي والتجديد الروحي فتستطيع أن تنتظر... ريثما يتحول الانسان العربي، على أيدي الأنظمة، مسخاً من المسوخ أو بعض القردة... وعند ذلك فلا حاجة به الى كل اولئك...

وإذا كانت النظم وكان الاعداء معها يريدون أن يحملوا علينا نتائج مواقف انهزامية لا علاقة لنا بها حتى ولا بمقدماتها فلأنهم يعرفون أن هذا الانسان العربي هو الخطر إذا تحرك. هذا الغول المرعب الحذر، النائم على البترول والغاز والثروات، في منطقة هي سرّة العالم بين القارات، والذي يختزن قوى وإمكان ١٦٠ مليون إنسان يجب أن لا يصحو وأن لا يتوحد. كل القوى الداخلية والخارجية تضرب معاً كل مكامن القوة فيه لكي لا يقف على رجليه. يجب أن يضيع في تيه تمزقاته الطائفية والاقليمية والسياسية وأن تقف فوق رأسه العصا الغليظة في الداخل ومن اسرائيل.

وامريكا. إن كان ثمة هزيمة حقيقية فهي ها هنا بالضبط.

هزيمتنا الفاضحة، نحن جيل الهزيمة، هي في أننا لم نكن مع الجماهير ولكن خارجها. لم ندخل في ضمائرها وبقينا على الهامش المسكين. لم نستطع أن نكون جبهة رفض لهذا القدر الذليل المفروض عليها من علُ ومن الخارج. لم نناضل بما فيه الكفاية لبناء الوعي، لحمل المصابيح، لتعليق «الجرس»!

واستطاعت الهزيمة أن تعشش وتفرخ...
بالتصفية الجسدية فرضوها.
بإعادة تركيب الرؤوس وما في الرؤوس من المبادىء والأفكار فرضوها.
بالنظم العميلة أو الغبية أو الرجعية أو القروسطية فرضوها.
بكل تكنولوجيا غسل الأدمغة فرضوها
بالإرهاب المدمر للذات حتى الجنون فرضوها.

ودُمّر الانسان العربي، تسطّح حتى صار ذا بعدين. وحدها الأفواه الجائعة فيه تتحرك للطعام والأرحام الحبلى دفاعاً عن البقاء!

نحن موتى وشرّ ما ابتدع الطغيان
موتى على الدروب تسير!!
نحن موتى يسرّ جار لجار
مستريباً متى يكون النشور؟

لقد نجحوا... بلى نجحوا ولو الى حين...

المنطقة التي كانت لها من الخمسينات الى الستينات مثل كبرى ترتبط بها في ثلاثي الوحدة والحرية والاشتراكية، لم يعد لها اليوم أي مثل ترتبط به. ردّوها كبعض الحيوانات الشرسة المروضة بالسوط في السيرك: تقف على الكرة الدوارة، أو تقفز، مع الموسيقى عبر الحلقات المهتزة! لم يعد لها اليوم أي موطىء قدم في الميزان السياسي العالمي. دخلت مرحلة انعدام الوزن. أضحت ذيلاً وذيلاً طويلاً ذليلاً للعم سام! المنطقة التي كانت ترفض حتى معونة مؤسسة روكفلر لمؤسسة علمية جعلوها كبغايا الأرصفة، يطلب زعماؤها «الكبار الكبار» من السيد الأمريكي ان يرضى النزول والتدخل، ويرجونه الرجاء الرخيص قبول القواعد والاحتلال... شعار «ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستبداد» حل محله شعار: اركض وراء الرغيف الهارب. إنهم يقتلون الخيول، كل الخيول!

ولقد نجحوا.. بلى نجحوا ولو الى حين!

الوحدة؟ من ذا الذي يذكرها اليوم حتى همساً؟ من ذا الذي يقف ليعتبرها الطموح القومي القدسي؟ أليسوا يبيعون اليوم تراب الاجداد باسم «السلام»؟ ويعتبرون حياة أي طفل أفضل من أي أرض في الوقت الذي يتقاتلون فيما بينهم على أشبار الأرض؟

الحرية؟ ولو أنها صرخة كل المقهورين، صرخة كل هذه الجماهير من الماء الى الماء، من ذا الذي يسمع صراخها الآن؟ إن دونها ألف جدار سجن وألف قفل حديدي وألف ألف سوط... النخاسون الجدد لم يبقوا على شفة تصرخ! قطعوا كل الشفاه! قمة ما يأملونه أن يصل الصوت الحر الرافض الى لحظة الانتحار. وبشراهم ألم يبدأ السلسلة خليل حاوي؟

أين حريتي؟ فلم يبق حراً
من جهير النداء «حتى»الاذان!!

الاشتراكية أو العدالة الاجتماعية؟ لقد تكفل بتدميرها الجانبان: وأعداؤها وأهلها على السواء. هي عند الاولين بضاعة مستوردة. نرفضها لأنها مستوردة. ولكنا نستورد السيارات الفارهة والخمرة المعتقة والجواري وكل رفاه «الكفار»، ولا نقدم للأفواه المسحوقة أي بديل! أما أهلها فقد دمروها بالتشويه الكامل، بنهب الناس والكفايات والثروات والحريات على اسمها، لإقامة رأسمالية الدولة وهيئة المنتفعين!...

حتى الدين، هذه الشعلة القدسية لا تنطفىء في الروح، جرّوه الى الوحل، والى عفن الطائفية والقشور. جعلوه هجرة عمياء الى القرون الأولى، ولحى تطول في غير طائل! وظفوه لا للسموّ وبثّ العنفوان وللصلة القدسية بالله، ولكن للتضليل عن الثورة، ولمقاومة الشيوعية، ولترويض الجماهير المسحوقة باسم الرضى والقدر.

إنه عهد التتر الجدد، وزمن الظهر المكسور، هذا الذي يفرض علينا العيش فيه والتعامل معه!

قوى المنطقة العربية كانت في الخمسينات واضحة اللون والتحرك والتطلع. المصابيح، كل المصابيح كانت أمامها لا وراء. وكانت المنطقة تعرف قواها الكتلة البشرية المتجهة الى الوحدة، الثروة النفطية والمالية التي تفتح الامكان، الخبرات البشرية المتزايدة في الكم والكيف، ولها فوق كل ذلك الطموح القومي للعطاء الكبير... خطوة خطوة مزقوا هذه القوى. سيذكر التاريخ ان فترة السنوات العشرين الأخيرة كانت السنين السوداء في تاريخ العرب. الكتلة البشرية التي كانت تعتبر الوحدة مصيرها المحتوم نقلوها منذ سنة ١٩٦١ (بعد فصم الوحدة بين مصر وسورية) من الوحدة الى الاقليمية، ثم من الاقليمية الى الطائفية، فهي مجاميع من البشر الاعمى يأكل بعضه بعضاً! جعلوا من عمليات الوحدة المكرورة العوبة مسكينة وموضوع تندر وهزء... حتى أتى يوم لم يعد يصدقها أحد، أو يؤمن بجديتها أحد... الثروة النفطية ــ المالية، تفجّر خطرها سنة ١٩٦٧ سلاحاً قاتلاً ممكناً... وما أسرع ما وضعت الخطط ثم وزعت الأدوار وأعمال التنفيذ فإذا هذا السلاح يتحول حراباً في نحورنا... وألجمة ومهاميز. المنطقة كلها أضحت كليلة المعري:

... عروساً من الزنج عليها قلائد من جمان!
هرب النوم عن جفوني فيها
هرب الأمن عن فؤاد الجبان!

أضحينا أسرى الأرصدة التي تراكمت ولا نملك منها حتى تحريكها، والسائل الأسود الذي أعيد حقنه في الارض او طفحت به الخزانات أو سيطرت عليه القواعد العسكرية، فنحن عليه مجرد حراس أمناء حظّنا منه النظر وبعض الأرغفة، وبعض المتع الفاسقة لسكان الطوابق العلوية...

الخبرات البشرية؟.. هذه الثروة المسفوحة على كل أفق، سلوا بلاد الله عن مئات الالوف من العقول العربية التي تعمل لغير أهلها وتصب عطاءها في كؤوس لآخرين. حتى من صمد منها للإغراء واستقر يخدم في البلاد سحقناه بالاضطهاد والعطالة حتى يلحق بالركب... ركب الهاربين!!

الطموح القومي الكبير؟.. لقد انتحر أخيراً بالصمت العربي الكبير ثلاثة أشهر أمام كارثة بيروت، وبتحوّل القبلة من بيت الله، بيت العزة، الى بيت اللات في واشنطن!

... ويسألونك، بعد هذا عن مراجعة الأفكار وعن الثقافة العربية الجديدة والدور الذي ينبغي أن تضطلع به. لا مراجعة أفكار. في المبادىء والمثل القومية ليس ثمة بدائل. لا بديل للوحدة ولا للحرية ولا للعدل الاجتماعي...

ويسألونك عن الثقافة الجديدة بعد هذه الهزائم. قل لا ثقافة جديدة. ولكن تفجير القوى الثقافية الشلاّء. تدمير الارهاب الفكري. تعرية المسرح كله بما فيه من ممثلين وأزياف وأصبغة ومهرجين... لا بديل ثقافياً جديداً ولكن مزيد من الفهم للعصر، ومن التعامل مع قوى العصر بمستوى العصر. اعادة الاعتبار للقيم القومية الحضارية وللطموحات التي خنقت. أعرف أنها معركة. ومعركة مريرة مريرة مع جميع قوى الشر. ولكني لا أرى طريقاً آخر. الثقافة ليست معلومات تقتنى ولكنها مواقف حية متحركة. نضال دائم من أجل انسانية الانسان. ولقد كان لهذه الأمة دوماً دورها الرائد في هذا النضال.

في الحديث النبوي المعروف أن ناساً ركبوا سفينة في البحر فانتبذ كل منهم مكاناً قال هذا موضعي أفعل به ما أشاء. فإن أخذوا على يده نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا... طغاة الوطن العربي قد انتبذ كل منهم ناحية قال هذا موضعي أفعل به ما أشاء. إنهم سجناء حتى في قصورهم. يرتعدون خوفاً وهم في علياء القصور. فإن تحركت طلائع الانقاذ للضرب على أيدي الاستداد الأعمى والطائفية وسحق الطغيان الامبريالي نجا المركب ونجوا، وان تركوا هلك وهلكوا... فمتى تراها تتحرك الطلائع؟...

الكويت